

رعوف عباس .. الذي هزم الفقر .. وسكن عقل الوطن

5 يوليو 2008

د. محمد الباجس

عندما صدر كتابه الأخير " مشيناها خطى " أهدى نسخة منه لعميد التربويين العرب د. حامد عمار .. وظل يضغط عليه حتى أصدر سيرته الذاتية هو الآخر في كتاب يحمل اسماً قريباً " خطى اجتزناها " .. وكأنه أراد أن يقيم للأجيال المطحونة .. نماذج مثلهم .. تمكنت من هزيمة الفقر والتهميش والعنت .. وسكنت عقل الوطن رواداً للفكر والعلم والمواقف الوطنية والإنسانية..

بدأ رعوف عباس خطاه في بورسعيد 1939/8/24 واختتمها منذ أيام 2008/6/26 عبر 69 عاماً حقق خلالها وهو ابن عامل السكة الحديد الفقير قفزات هائلة .. في مناخ الستينات المواتي .. فأصبح أستاذاً وصاحب مدرسة متميزة في الدراسات التاريخية .. وسكن عقل الوطن .. من باب العمال والفلاحين ، والفقراء والمهمشين .. وكأنه درس التاريخ ليشاركهم همومهم .. ويحفر عن الجذور وراء مشاكلهم .. ويحاول معهم إيجاد مخرج منها.

كان أول باحث في التاريخ يقدم أطروحته للماجستير عن " الحركة العمالية في مصر " .. وأطروحته للدكتوراه عن " النظام الاجتماعي في مصر في ظل الملكيات الكبيرة " .. وبعدها توالى دراسات وكتبه ومشاركاته وترجمته التي ستبقى دليلاً على فكره المتقدم .. ورؤيته المحيطة .. وإنجازاته الواضحة .. ومدرسته المتميزة في التاريخ والبحث " مذكرات محمد فريد – الحركة العمالية المصرية في ضوء الوثائق البريطانية 1937 – 24 – جماعة النهضة القومية – السياسة الأمريكية والعرب – جامعة القاهرة ماضيها وحاضرها – مصر للمصريين مائة عام على الثورة العربية – مصر والبحر المتوسط – العرب في إفريقيا – 40 عاماً على ثورة يوليو – العلاقات العربية البريطانية – الأحزاب المصرية – حرب السويس بعد أربعين عاماً – القاهرة 1997 – يوميات هيروشيما – دراسات في تطوير الرأسمالية – الهلال الخصيب – تاريخ اقتصادي وثائقي – الجذور الإسلامية للرأسمالية – دراسات في تاريخ العالم .. وغيرها " . واللافت للانتباه حقاً أن رعوف عباس ومدرسته المتميزة في التاريخ التي أسسها من تلاميذه النجباء ، وفتح أمامها مجالات البحث في التاريخ الاجتماعي بدراساته المتقدمة ، لم يختبئ داخل الحيادية المزعومة للمؤرخ .. واقتحم مجالات عديدة لتصحيح مفاهيم مغلوطة سادت وبقيت واكتسبت حصانتها من تلك الحيادية غير العلمية .. غير الإنسانية .. فأعاد الاعتبار للدولة العثمانية في مواضع كثيرة بعد أن قام مع تلاميذه بفرز دراسات المستشرقين .. ومراجعة الوثائق بأمانة شديدة .. واستعادة الوقائع في مظانها .. وكشف عن افتئات المستشرقين بسبب مقاومتها للمحاولات الاستعمارية على مدى 600 عام.

وفي سيرته الذاتية " مشيناها خطى " كشف عن العديد من المواقف الجادة والحادة في آن واحد .. ووجه انتقاداته المرة لكثير من الموضوعات القائمة .. وانتقد مواقف الجامعة التي تراجعت كثيراً حتى كادت تفقد دورها الحقيقي .. كما هاجم التعليم الجامعي الخاص وحذر منه .. واتهم الجامعة الأمريكية بفتح أبواب خلفية للتطبيع مع العدو الإسرائيلي واستعانتها بأكاديميين إسرائيليين يروجون لسياستها بين الطلاب .. في الوقت الذي تقوم فيه جامعات بريطانية وعالمية بمقاطعة الجامعات الإسرائيلية لذات الأسباب .. ولم يسجل عليه التراجع عندما اتهمه المؤرخون الأمريكيون اليهود بمعاداة السامية .. بعد رفضه الإشراف على ترجمة كتاب " شنات اليهود المصريين " وأدانه بعدم الموضوعية في رؤيته لموقف مصر الناصرية من اليهود المصريين .. وكان رأيه الحازم سبباً وراء رفض وزارة الثقافة ترجمة الكتاب ونشره.

هذا هو رعوف عباس الذي غادرنا منذ أيام .. مخلفاً لنا تراثاً علمياً وإبداعياً جمع بين النقيضين: العلم والأخلاق ، كما قرر زملاؤه وتلاميذه ، ومدرسة متميزة في مجال الدراسات التاريخية ، وآلأفاً من تلاميذه أبناء العمال والفلاحين الذين كان يهش للقائهم بحب شديد وتواضع كامل وأدب جم ، إلى جانب بذور وأساسيات موسوعة علمية عن تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في القرن التاسع عشر .. قرن التحولات والحراك الاجتماعي

والاقتصادي والسياسي .. سوف يتابع انجازها زملاؤه وتلاميذه وفاء للراحل العظيم الذي كان -أيضاً- نموذجاً
في الوفاء لأساتذته وللعلم.